النهـار المغربية

12 سنة في اليابان، والحصول على الدكتوراة في قضايا العلاقات الدولية والدراسات الاستراتيجية، وقضايا الأمن والعمل الديبلوماسي، وباللغة اليابانية، والتدريس فيما بعد كأستاذ مساعد في إحدى الجامعات اليابانية. كل هذا يشفع من أجل إجراء هذا الحوار مع مصطفى رزرازي، هذا الأخير اشتغل أيضا لفترة في مكتب طوكيو لقناة الجزيرة، ولمدة سنتين في مركز الدراسات الاستراتيجية في أبو ظبي. حاورنا رزرازي عن اليابان والمغرب. فمن جهة سألناه عن سر النجاح الياباني، ومقومات الثقافة والذهنية اليابانية، أيضا عن آليات اشتغال النظام السياسي في هذا البلد الأسيوي، بخصوص المغرب حاورنا رزرازي عن التحولات الجارية في المغرب سياسيا حقوقيا ومعرفيا... إلى ذلك تحدثنا عن العلاقات اليابانية المغربية وعن سبل تطويرها. مواضيع أخرى كانت في صلب الاستجواب كظاهرة الكاميكازي، وعن مفهوم الزمن، والبعد المعرفي للتنمية. ومواضيع أخرى كان كل هذا في إطار الدراسة المقارنة.

الجزءالاول

المصطفى رزرازي متخصص في إدارة الأزمات بالجامعة اليابانية وخبير الشؤون الأسيوية لـالنهـار المغربية

الذهنية اليابانية ترتكز على التوليف بين الحداثة والتقليد الذي لا يؤدي إلى الصدام بل إلى الإبداع

أجرى الحوار: علي الباهي

■ في أول رحلة لك إلى اليابان، كيف كان اللقاء الصدام مع هذا البلد الأسيوي؟

● كانت زيارتي طبعا لليابان في بداية التسعينيات، غادرت العمل الصحفي أصلا من أجل إتمام الدراسات العليا في اليابان. وللإجابة السريعة عن سؤالك: لا أخفيك أنني وقعت فيما يسمى بالصدمة الثقافية. طبعا هذه الصدمة ارتبطت بتركيبتي الذاتية كمغربي عربي يحمل قيم ثقافية تختلف عن القيم الغربية. ويحمل تضخما في الذات ككل المغاربة والعرب إذ ينتهي العالم حيث ما علمونا ونحمل صورة مغلوطة عن اليابان، حتى إعجابنا باليابان تكتنفه صورة غير حقيقية. الدخول في المجتمع الياباني اقتضت سنوات من الترويض للانضباط أولا، ثم للاندماج ثانيا، ثم للمساهمة في الإنتاج وفق المعايير اليابانية. كأستاذ في الجامعة اليابانية وأدرس مواد ترتبط بالعلاقات الدولية وبالدراسات الاستراتيجية والعمل الديبلوماسي. اليابان طبعا ليس مجتمعا تقليديا كما يعتقد الكثيرون، وليس بالحداثي كما يظن الكثيرون أيضا. وليس بالمركب بالبساطة التي قد يتخيلها البعض على منوال نظرية باسكو: البدوي الذي يقود الدراجة النارية. اليابان عالم نتعلم منه الكثير، يتشابه في بعض مظاهره مع عالمنا العربي، لكن تركيبه العقلي والنفسي والديني والمعرفي يختلف تماما عن التجربة العربية الإسلامية، سواء في الماضي أو في الحاضر أو في المستقبل.

■ مسعود ضاهر ذهب إلى اليابان وألف كتابا عنونه بالنهضة العربية والنهضة اليابانية: تشابه المقدمات واختلاف النتائج، كيف تقرأ مقاربة هذا المفكر اللبناني لمسار النهضة اليابانية؟

● الزميل مسعود ضاهر، طبعا التقيته في اليابان خلال رحلاته التي زار فيها اليابان في بداية التسعينيات لبضعة أشهر، ثم في منتصف التسعينيات لحوالي سنة، ثم قيامه بزيارات كان يتردد فيها على اليابان من أجل إنجاز بحوث متعلقة بمشروع النهضة التي صدرت في كتاب ضمن سلسلة المعرفة، ثم طور مشروعه في كتاب آخر صدر عن مركز دراسات الوحدة العربية. الكتاب أعتقد لا يحمل من حيث المعلومات الشيء الجديد داخل المناخ الياباني، وآسف لأنني أتحدث بهذه اللغة، باعتباري أكتب باللغة اليابانية. أكثر مما أكتب باللغة العربية، واشتغالي في هذه الفترة بالضبط كان باللغة اليابانية الفكرة المحورية لمسعود ضاهر: تشابه المقدمات واختلاف النتائج بين اليابان والعرب. تبدو تقليدية من حيث ارتباطها بهذا الوهم الذي يعيشه المثقف العربي من خلال المقارنة بين محمد علي والإمبراطور الياباني ميجي، بين الحسن الأول/ميجي/ خير الدين التونسي/ميجي، عبد الحميد الثاني/ميجي. مقارنات لا تستند على أي أساس إلا من حيث النوايا.. المقدمات لا يمكن طبعا أن تختزل في النوايا لأنه في رأيي باحث آخر وهو محمد عفيف، الذي سيناقش رسالة الدكتوراه في الأشهر القادمة، يشتغل كذلك حول نفس الموضوع، وانتهى إلى نتائج مختلفة باعتباره يركز فيما أظن في مقاربته التاريخية عن اختلاف التجربة التاريخية، مسعود ضاهر اشتغل حول ما أعد من إصلاحات في العالم العربي ليقارنها بما نفذ من مشاريع. لكنه أغفل في نظري الجانب الذي ربما اجتهد فيه محمد عفيف كنموذج، وهو ما قبل مرحلة النهضة وما حدث من تراكمات سابقة الجانب الذي أشتغل في إطاره أنا هو الجانب الإبستمولوجي لفلسفة العلوم والتي ركز عليها اليابانيون لتحقيق نهضتهم. وهو للأسف مجال للبحث لم ينشر عنه أي شيء حتى باللغة الإنجليزية أو الألمانية أو الفرنسية أو العربية. وظل سجين اللغة اليابانية أو اللغة الصينية، هذا المجال يشرح الكثير من أسرار نهضة اليابان، فاليابانيون أخذوا جزءا من التجربة الغربية، ولكن أسسوها على إبستمولوجية تستمد أصولها من فلسفة العلوم الشرقية. هنا طبعا يوجد سر من أسرار النجاح الياباني، التي ترتكز عليه أرضية البحث العلمي والتكنولوجي في هذا الإطار يمكن للبعض أن يدعي بكون اليابان لم تحدث قطيعة مع الماضي، هذا موضوع له بعدين معقدين: البعد الأول بعد معرفي، ذلك أن اليابانيين قاموا ببعض القطائع، ولكن لا نتحدث عن القطيعة وفق لغة باشلار بالمفرد.. قطائع حصلت على صعيد اللغة، إذ تم تحديث اللغة، لقد قام اليابانيون بنقلة نوعية تمثلت في تبسيط حرف الكانجي، تبسيطه من حيث الكتابة أو النطق، الأمر الذي سهل عملية التعامل مع الغرب والعالم الخارجي.

في سياق مختلف تماما حدث هذا مع ماوتسي تونغ الذي بسط أيضا من اللغة الصينية لكن بطريقة مختلفة. في سياق آخر حدث هذا مع كمال أتاتورك الذي غير اللغة العثمانية من الحرف العربي إلى الحرف اللاتيني، مسألة اللغة تبدو إذن واحدة من المفاتيح الأساسية لفهم النهضة. هناك أيضا قطائع حصلت على المستوى الديني، فقدرة الإمبراطور الياباني (بعد توحيد البلاد) من خلق توازنات بين البوذية وبين الشينطو، والسماح بهامش للديانة المسيحية مع إقرار الشينطو الإمبراطوري كدين رسمي للدولة. ثم هناك الجانب الإبستمولوجي كما قلت، وهو جانب جد معقد وهام يقتضي بالفعل أن نشتغل فيه باللغة العربية في بحوث قادمة، وربما أشعر بهذا التقصير الآن.

■ بمعنى أن المدخل المعرفي لم تعره بعض الأوساط العربية العناية اللازمة لفهم سر نهضة اليابان؟

● بالضبط، ويعني أننا لم نشتغل كباحثين ولم نكتب أي شيء يذكر حول المدخل المعرفي للتنمية، إضافة إلى مسعود ضاهر هناك باحثين آخرين، هناك رؤوف عباس الذي اشتغل أيضا حول تجربة محمد علي ومقارنتها بتجربة اليابان. في الجانب الياباني هناك ميكي وتاري وناكوكا وعدد من الباحثين اليابانيين الذين حاولوا الإجابة عن هذا السؤال، رغم ذلك دعني أختتم هذه الإجابة بالتأكيد على وجود مخاطر في الدراسات المقارنة. وأعتقد أنه حان الوقت لكي يتخلص المثقف العربي من الدراسات المقارنة، لأنه يمكن أن نفهم التجربة اليابانية أو أي تجربة أخرى من خلال دراستها على انفراد دون مقارنتها بأي تجربة أخرى.

■ بمعنى دراسة التجربة من الداخل؟

● بالضبط، وللأسف هذا ما نفتقده في العالم العربي. هناك غياب مثلا في المغرب لدراسات متخصصة عن أمريكا (دون أمريكا والعرب. أو العلاقات المغربية الأمريكية). غياب دراسات حتى عن الجزائر. أيضا عدم وجود دراسات عن الدولة التي استعمرتنا وهي فرنسا: تاريخ فرنسا، المجتمع الفرنسي... دون أن نتحدث عن المهاجرين وعن الإستعمار.

طبعا هذه محاور أساسية لايمكن القفز عليها، ولكن نحتاج إلى دراسات عن مجتمعات بعينها من الداخل فقط. مثلا عندما نتحدث عن إسبانيا، فإما أن نتحدث عن العلاقات المغربية الإسبانية، أو عن الأندلس، لكن ليست هناك دراسة مستقلة من الداخل للمجتمع الإسباني، للقانون الإسباني وللنظام السياسي الإسباني، لطريقة صنع القرار في إسبانيا، وللتحولات التي شهدتها إسبانيا من العهد الإقطاعي إلى عهد فرانكو ثم للعودة إلى العهد الملكي الجمهوري والقفزة الإقتصادية والصناعية والعلمية التي حققتها.. كل هذا يغيب للأسف داخل الحقل العلمي عندنا.

■ يتحدث باحثون عن أن اليابان في نهضتها جمعت بين ثنائية الأصالة والمعاصرة. في نظركم أين تكمن هذه الجدلية والعبقرية اليابانية؟

● طبعا هناك أصالة ومعاصرة، وإن كان الإصطلاحان لايفيدان كل المعنى، أكيد أن الحياة اليومية للياباني تعرف مثل هذه التداخلات، تداخلات بين الفكر التقليدي والحديث، إذ لازال الياباني يولد على طقوس بوذية ويتزوج بطقوس مسيحية، ويموت بطقوس الشنطو. لازال بعض اليابانيين يحافظون على آلهتهم داخل بيوتهم ويعودون إليها من حين إلى آخر. كذلك اليابانيون مايزالون يحافظون على تقليد الإحتفاظ بفتات ما يتبقى من حرق أهاليهم الموتى، الجد والأب... يحافظون عليها تبركا. لازالت الأسرة اليابانية رغم بعض التفكك الذي تعيشه مثلا في طوكيو العاصمة، تعرف تماسكا إذ يلاحظ الدور الأساسي للأب، هناك سلطة الأسرة وسلطة الجماعة ربما نقلت إلى داخل المصنع والشركة في اليابان. هنا التعقيد داخل الحضارة اليابانية: الأب كمفهوم تم نقله من الأسرة إلى الشركة. فالشركة أو المصنع بما يعيشه من تطور حداثي، فاليابان ظل محتاجا إلى قوة الكاريزما أي إلى خلق عقيدة جديدة أو دين جديد يحث على العمل. هذا التركيب وهذا التحايل على الفكر التقليدي قصد إعادة صياغته لمواكبة حاجة المجتمع الياباني المعاصر المتقدم و المتطلع للإبداع في مجال الصناعة يفتقد إليه المجتمع العربي، إذا ما قارنا بين المجتمعين. مسألة الأصالة والمعاصرة في العالم العربي معادلة تفيد التضاد وعدم التجانس، لأن التجانس يصنعه الإنسان. لكن في المجتمع الياباني ليس هناك تضاد، حتى يتم عمل جهد للتوليف بين المسارين الحداثي والتقليدي. الياباني لم يعش ذلك التناقض بالدرجة التي عاشها المجتمع العربي. لهذا أعتقد أن طبيعة التقليد الياباني هو تقليد لايحمل معه القداسة أي سلطة النص التي هي موجودة في الواقع العربي. فهو تقليد إذن غير مرتبط بنصوص، ومن تم فهو تقليد قابل للتحايل عليه وللتعديل ولإعادة تركيبه بصيغ مختلفة تتماشى مع مقتضيات الحداثة.

■ ولماذا لم يتم إحداث تجاوز وقطيعة مع التقليد في التجربة اليابانية كما حصل في الغرب مثلا؟.

● المشكلة ترتبط أساسا بالمجتمعات حيث الديانات السماوية، فمشكلة التقليد والحداثة تدور في الفضاءات التي تحكمت فيها لقرون عدة سلطة النص الديني. أما في اليابان فلايوجد النص الديني المقيد باستثناء ما مارسه الإمبراطور كرمز بتركيز سلطته كشبه إله خلال النصف الأول من القرن 20، وتوظيف ذلك في الحربين العالميتين الأولى والثانية. مادون ذلك لم يكن وسط المجتمع أي شعور بهذا التضاد الذي قد يجعل اليابانيين يفكرون في ضرورة التخلص من شيء ربما يعيق مسيرتهم النهضوية والحداثية.

هكذا فاليابان تعيش تطورا حداثيا دون أن ينجم عن ذلك أي اختلال لجدلية الحديث والتقليد باستثناء بعض الهياكل الإقتصادية. مثلا ما حصل بخصوص تقادم تاريخي للشركات الكبرى أي مايسمى بالشركات العالمية اليابانية الكبرى التي سيطرت سابقا على السوق، وبدأت تفقد دورها خلال العقود الأخيرة، مما أحدث شبه أزمة اقتصادية خاصة في القطاع المالي في اليابان، وظهر الآن بديلا لها ويتمثل في قطاع الشركات المتوسطة والصغرى التي يتوقع أن تلعب دورا جديدا في عهد مايسمى بالعولمة دون أن تلغي الشركات الكبرى التي كانت قبلها. إذن التفكير الإستراتيجي الإقتصادي حاليا في اليابان يدور حول إعادة خلق توازنات دون أن يظهر كأنه تضارب بين الأسلوبين، إذن حتى في القطاع الإقتصادي لم يظهر هذا التناقض الصارخ بين المؤسسة القديمة والمؤسسة الجديدة. ونحن نتحدث عن مائة سنة فقط. بل ربما هذا يدخل في إطار آليات العمل لدى الذهن الياباني، الذي يرتكز على التوليف

اليابان ظل محتاجا إلى قوة الكاريزما أي إلى خلق عقيدة جديدة أو دين جديد يحث على العمل هذا التركيب وهذا التحايل على الفكر التقليدي قصد إعادة صياغته لمواكبة حاجة المجتمع الياباني المعاصر المتقدم

الذي لايؤدي إلى التناقض. لكن في المجتمعات العربية، وفيما أظن، فإن المشكلة هيكلية ترتبط بطبيعة وصيغ التقليد. هنا مكمن الداء. فنحن يسيطر علينا همنا التراثي ومفهومنا للتقليد كما نعيشه. ويسيطر علينا تصورنا للآخر الذي يحاصره تاريخيا الغرب المسيحي وعلاقته بالكنيسة وبالتقليد. ونحاول أن نعمم هذه الثنائية على كل العالم، عن الصين وعن اليابان وعن الهند... في حين أن العالم الآسيوي الذي يمثل أكثر من نصف العالم يعيش إشكاليات تختلف عن إشكاليات الغرب والعالم الإسلامي.

■ إذا تحدثنا عن التمايزات بين الذهنية اليابانية والذهنية العربية، كيف تبرزها من وجهة نظرك؟.

● الذهنية مفهوم معقد. لكن دعني أقارب المفهوم. فإذا أردنا أن نتحدث عن الذهنية بمعنى طريقة التفكير. فاليابانيون بطبيعة الحال مزجوا بين مستويين : الرقي الروحي وبين البرغماتية في عملهم اليومي. فرغم أن اليابان مجتمع غير ديني، فإنه وضع لنفسه أجندة أخلاقية ترتبط بالعمل، ترتبط بمفهوم الأسرة، ترتبط بالتراتبية الإجتماعية، ترتبط بمفهوم الذات، وبالكرامة، والشجاعة، بالخوف. كل هذه المفاهيم للأسف مهتزة عندنا في العالم العربي.

بالإضافة إلى ذلك الياباني لايستأنس للغد. طبعا يشتغل بجد لغده، لكنه جاهز للمغامرة. اليابا ني ولد في مجال جغرافي ربما ساعده إلى حد ما ليعيش اضطرابات طبيعية هائلة. عدم الإستقرار، وعدم الإستكانة .. وعدم الإطمئنان هذا للطبيعة كون عنده عقلية متحفزة، مستعدة للمغامرة، لاتؤمن إلا بما تنتجه الذات، ولايحمل المسؤولية للغير، نادرا ماسمعت في اليابان أحدا يحمل أخطاءه وفشله للآخرين. كذلك اليابانيون يشتغلون جماعيا وهذا هو الجزء الثاني من الإجابة. اليابانيون فرادى يظهرون وكأنهم غير فاعلين، لكن سر نجاح اليابان في النظام الجماعي والتفاني في العمل، لكن هناك جانبا سيكولوجيا يستمد منه الياباني قوته ألا وهو التواضع ونكران الذات. فالياباني يعتبر نفسه مهما حققه المجتمع الياباني متأخر. الياباني يشكو طول الوقت من تأخر بلده بالمقارنة مع الدول العظمى الأخرى، ومن حاجتها إلى العمل لتحقيق مكاسب أخرى على المستوى المعرفي والأخلاقي والإقتصادي، إذا أخذنا العالم العربي فماذا سنجد؟. نجد، على عكس التجربة اليابانية. أن التضخم زائد في النظر إلى الذات. تضخم لا أدري من المسؤول عنه. هل الحركة الوطنية؟ هل النظام المعرفي الذي كان سائدا قبل ذلك أم بعد ذلك؟. لكن بكل تأكيد أن مفهوم الخصوصية المغربية أكيد ساهمت في تكريس هذا التضخم.

إذ نعتبر أنفسنا، كمغاربة وعرب، متميزين، أحيانا أحسن من الآخر، غير قابلين للمقارنة، وغير قابلين للنقد والزيادة، مثلا الرقم المستحيل الذي يستعصى إدخاله في أية معادلة حسابية، لكن لا نعمل شيئا لتطوير ذواتنا، نرفض المنافسة مع الآخر، نعتبر أنفسنا فوق النقد. في هذا السياق أرجو أن لا يفهم من كلامي أنني أنتقص من الذات المغربية، بقدر ما هو نداء حقيقي لمراجعة الذات. ودعني أقولها بكل صراحة: لقد تخلفنا كثيرا في المغرب حتى عما حققته الأجيال المغربية السابقة، تراجعنا كثيرا فكريا، معرفيا أدبيا... ولا نريد أن ننظر إلى ذواتنا في المرآة، كل ذلك بسبب هذا التضخم في الذات، أحيانا كثيرة نعتبر أنفسنا أكفاء مقارنة مثلا بالمشرق العربي. لكن حينما ننظر إلى المنتوج النهائي، في المنتوج الإعلامي، والأدبي، والسينمائي، الغنائي، والفلسفي... نجد أنفسنا حقيقة دون ذلك، طبعا نتوفر على كفاءات وشباب وفلاسفة، لكن على مستوى المنتوج النهائي فبدرجة مساهماتنا في التنمية المعرفية جد محدودة كما نراه في مصر مثلا، وحتى في دول الخليج، إذن مسألة التضخم في الذات مسألة محرجة في ذهنيتنا في جانبها السيكولوجي خاصة، وتقتضي بالفعل مراجعة جذرية خاصة على مستوى البرامج التربوية.

■ كيف ينظر الإنسان الياباني إلى مسألة الزمن؟

● دعني أجيب بما شاهدته مرة: طفل يبلغ من العمر 10 سنوات يتحدث إلى زميله على الهاتف ليتفقا على موعد للعب، والطفل يقول لزميله: إنتظر، ليخرج أجندة (Agenda) ويراجع ساعاته: ساعات الدراسة والأكل ومشاهدة التلفزيون وساعات النادي ومرافقة الوالدين قصد التنزه، ليجد ساعتين بين الرابعة والسادسة من يوم الأحد ليتفق مع زميله الذي لا يتجاوزه سنا، طبعا أنا أتحدث عن طفلين، هذا مثال يفيد جزءا من المعنى، طبعا اليابانيون معروفون بالدقة في الإلتزام بالمواعيد، والالتزام بالمدد المحددة، سواء على المستوى الشخصي، أو الإداري، أو المؤسساتي، أو الدولي. داخل الإدارة اليابانية مثلا يستحيل أن يحدد لك موعدا لتسلم ورقة وتؤجل لدقيقة واحدة. هذه من المستحيلات، خلال 13 سنة من مقامي في اليابان، لم يحصل أن اتصلت بإدارة معينة، وحددوا لك الساعة الرابعة وجئت ليقولوا لك إنتظر خمس دقائق. هذا إذن يرتبط بمفهوم الزمن على المستوى الفلسفي عند الأمة اليابانية فمفهوم الزمن ليس فكرا ممتدا في الثقافة اليابانية، هو يأخذ مسارا حلزونيا، فمفهوم الزمن ينتهي بحياة الشخص ليتناسخ في ذات ثانية، وهناك جزء كبير من هاته الفلسفة تؤثر على الدقة في قياس الزمن، لكون الزمن ليس أمرا ميتافيزيقيا، الزمن لدى الياباني مفهوم إنساني يصنعه الشخص ويتحكم فيه حسب إرادته.

■ بمعنى أنه ملك يديه؟

● نعم، لهذا فلا يمكن أن تبرر شيئا بالزمن، أو أن ترميه للزمن، حتى في العقود اليابانية، وهذا هو المثير، حينما يتم توقيع عقد بين شركة يابانية وأخرى أمريكية مثلا، الطرف الياباني يكون حريصا على فارق الساعات بين اليابان وأمريكا. فعند رجال الأعمال اليابانيين تجد الدقة في المواعيد والحرص على تسجيل ذلك الفارق وتمثل حساسية كبيرة لدى الطرف الياباني والمواطن العادي كذلك.

■ هناك من يفسر التحديث والنهضة الحاصلة في اليابان بالموقع الجغرافي، ذلك أن العزلة الجغرافية سمحت لليابان بفسحة زمنية لإنجاز التقدم والتنمية، هل تتفقون مع هذا التحليل؟

● هذه وجهة نظر إلى حد ما تقليدية تعود إلى توينبي، المؤرخ الإنجليزي الذي حاول أن يشرح تقدم اليابان شرحا سيكولوجيا والمبنية على مفهوم «عقلية أهل الجزيرة»، لكن إذا نظرنا إلى بريطانيا مثلا، فلم يحصل فيها هذا الأمر، هناك أيضا عدة جزر في العالم لم تخلق نفس النمط من البشر والتقدم، ولم تحدث نفس التحول الذي حدث في أواخر القرن 19 في اليابان. التفسير الجغرافي لعقلية اليابان قد يكون صحيحا جزئيا حين تفكر في علاقة اليابانيين وتعاملهم مع الآخر، سواء الهولنديين أو البرتغاليين أو غيرهم من الذين حاولوا الدخول إلى اليابان واقتحام هذا الأرخبيل. نجد هذا في اللغة، مثلا الأجنبي يسمى (الكايدجي) بالإصطلاح الشعبي ومعناه القادمون من الخارج. والموجود خارج اليابان يسمى (الكاي جاي) أي ما وراء البحار. حينما يتعلق الأمر بالتماس بين الذات اليابانية، أو الجنس الياباني والآخر، هناك طبعا اليابانيون أنتجوا نسيجا ثقافيا، قد يكون وهميا لحماية أنفسهم من الآخر. وهذا ارتبط بالتركيب الطبيعي للجزيرة، فجاءت كل الإصطلاحات مرتبطة بما وراء البحار، فالقادمون ما وراء البحار يفيد هذا البعد الجغرافي في الثقافة اليابانية، لكن في رأيي لا يجب التسرع في تبني وجهة نظر توينبي لأن البحث في المجال الأمني أو ما سميته في بحث سابق (ليس في اليابان لوحدها وإنما في الصين أيضا) بالدوائر الأمنية، إذ نجد للماء دورا في الثقافة الشرقية، مثال بسيط جدا أن القصور الإمبراطورية في اليابان يحميها سور داخلي ثم سور خارجي وبينهما نهر ثم بعده يأتي الخارج. فالماء يعتبر وكأنه سد وحزام أمني، وهذا ليس مرتبطا باليابان فقط وإنما أيضا بالصين، إن مراجعة التاريخ العسكري الصيني مثلا والدوائر الأمنية في التاريخ الياباني والصيني منذ القرن 16م يفيد أنها تأسست على مفهوم الدوائر المائية. وهذا يدعو في رأيي إلى الكثير من التفكير لمراجعة هذا التفسير الذي يحمل الكثير من العنصرية أو التفكير الاستشراقي الاستعماري الذي طبع جزءا من تفكير توينبي، أعتقد أنه ليس من السهولة الحسم بهذه البساطة في قضايا شائكة ترتبط بالتاريخ العسكري والسياسي، والوقوف على العنصر الجغرافي لتفسير كل شيء وخاصة قضايا التقدم والتأخر.

■ وماذا يمكن القول عن الشخصية اليابانية؟

● الشخصية اليابانية شخصية متميزة غير عدوانية، لكنها شخصية لا تميل إلى هذا الاندماج السهل مع العالم الخارجي، وكأن الإنسان الياباني هو أشبه ما يكون بما يمكن أن نسميه بالسهل الممتنع. لقاؤه طيب ولكنه صعب ليس بالسهولة التعامل مع الطرف الياباني، مثلا المحاولات الأمريكية التي استهدفت التحكم في السوق الثقافي الياباني باءت كلها بالفشل الذريع، لماذا؟ لأنك تجد الياباني يمتلك مقاومة شرسة لكنها مؤدبة ومسالمة لكل ما يستهدف هويته. وأذكر أنني عندما كنت طالبا في نهاية 1995. كانت هناك أزمة في الإكتفاء الذاتي من الأرز في البلد. وكنت داخل المطعم الجامعي، أثار انتباهي في ذلك اليوم أمر مثير. لقد تم انتقاص نصف الكمية من الأرز لكل طالب، وفي الصحن كتبت العبارة التالية: تم انتقاص 50 غراما من الحجم العادي من الأرز الياباني، ورفع سعره حوالي 50 ينا يابانيا (حوالي 3 دراهم مغربية). وإلى جانبه وضع الحجم السابق لكنه من الأرز الأمريكي وبسعر أقل. فماذا كان رد فعل الطلبة اليابانيين؟ كان الطلبة يفضلون الأرز الياباني بزيادة 50 ينا بالرغم من تقليص الوزن على أن يأخذوا الأرز الأمريكي. طبعا ليست هذه قاعدة قارة، ولكنها تؤشر لطبيعة الإنسان الياباني فكرا وممارسة ومدافعة عن أصالته.

■ ظاهرة الكاميكاز ارتبطت باليابان قبل امتداد الظاهرة عالميا، هل من تفسير نفسي واجتماعي للظاهرة؟

● الكاميكاز هو اصطلاح يعني روح الرب، (الكامي) تعني الإله و(كازي) تعني الريح. المصطلح استعمل للدلالة على العمليات الانتحارية التي نفذت خلال الحرب العالمية الثانية، طبعا، ظاهرة الانتحار في اليابان مرتفعة جدا، في سنة 2004 سجلت حوالي 36 ألف حالة. المسألة ترتبط إضافة إلى التفسير السيكولوجي المرتبط بالحالات المرضية بأمور أخرى فهناك التفسير الاقتصادي المرتبط بحدوث حالات اكتئاب وانهيارات، هناك حالات الانتحار عايناها ترتبط برب العمل، ذلك الذي يجد نفسه أمام خيارين: خيار إعلان إفلاس الشركة وتسريح كل الموظفين. وخيار الانتحار، وانتحار رب العمل يعني قانونيا أن تقوم شركة التأمين بتعويض كل الموظفين. تجد هذا الخيار الثاني يميل إليه اليابانيون كثيرا، ولذلك لا يمثل الانتحار في الثقافة اليابانية ذلك العار أو الجبن الذي قد يأخذه الانتحار في ثقافات الشرق، خاصة في الثقافتين المسيحية والإسلامية، هاته الأخيرة التي يتحكم فيها الوازع الديني الذي يحرم قتل النفس، هذا عن الانتحار، أما ظاهرة الكاميكاز، أو ما يسمى بالعمليات الانتحارية العسكرية، فهي ترتبط بالتنشئة والترويض الإيديولوجي الذي يخضع له المجندون، لكن الفرد الياباني يحمل جزءا من الاستعداد. أولا على المستوى الإيديولوجي، باعتبار الموت هو من أجل الرب الذي يرتبط بالإمبراطور باعتبار أن الإمبراطور هو من سلالة الرب فهو نصف إله، ويرتبط أيضا بكبرياء الياباني وحبه لوطنه بغض النظر عما إذا كانت العملية ترتبط بقرار سياسي صائب أم غير صائب. فالكبرياء أحيانا يؤدي بالياباني إلى القبول بالعرض والانضباط للقرار بالرغم من أنه غير مقتنع بدراسة هذه الظاهرة تتطلب بحوثا من جانب المثقفين العرب، لاسيما أنها أصبحت تمس الجانب العربي الإسلامي. ما حدث في 11 شتنبر 2001 بالولايات المتحدة الأمريكية، أو التفجيرات التي ضربت الدار البيضاء في 16 ماي 2003، أو ما يحدث الآن في السعودية أو في العراق... وهو ما يدعو إلى التفكير العميق في هذه المسألة والمقارنة من أجل الاستفادة من تجارب الآخرين. لقد اشتغلت شخصيا على مقال عنونته ب«صناعة الآلة الإرهابية» حيث اشتغلت على جانب هام ويتعلق بجانب ترويض الجسد عند الجماعات الدينية، وكيف يتم تأهيله للقبول بالقيام بمثل هاته العمليات. واشتغلنا جماعيا وأخذنا عينات من القارات الخمس لمقارنتها ولمحاولة فهم هذه الظاهرة دون أن يكون ميل لاتهام ثقافة معينة. وكنا نطمح للوصول إلى فهم الآليات السيكولوجية والاجتماعية التي يخضع لها الشخص لإيصاله جسديا إلى حالة يقدم فيه الشخص إلى تقبل العدم. مسألة ليست بالبساطة فهمها، وأعتقد أن مفهوم التضحية لا يكفي لشرح كل شيء، ومفهوم الفناء من أجل الفكرة لا يكفي أيضا، لعل مفهوم تقبل الألم مطروح كذلك في هذا الصدد. إذ كيف يشعر الشخص بالألم؟ ثم كيف يمكن أن يتخلص من فكرة الألم، ويقبل على هذا العمل/ العدم، الأمر إذن يتطلب دراسات مستقلة ودقيقة ومسؤولة من أجل فهم الظاهرة.